

متصورات الشعريّة عند الفلاسفة المسلمين

الأستاذة أسماء نوني
المركز الجامعي أحمد زبانة- غليزان
nouniasmaa_38@yahoo.com

الأستاذ محمد عايش
جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة
medaiche81@yahoo.fr

تاريخ الوصول: 2018/03/08 القبول: 17 – 02 - 2019 النشر على الخط:.....
Received :..... I Accepted :..... I Published online :.....

الملخص:

إنّ مُعَاينة التُّراث الشّعري العربي تستوجب الحديث عن اجتهادات الفلاسفة المسلمين في التّأصيل لهذا التراث. فقد ساهم الفلاسفة بشكل جلي في بلورة المعالم الأساسية للمفاهيم الشعريّة مُتأثرين بالفلسفة اليونانية - نعني كتاب فن الشعر لأرسطو- والذي قال بأنّ الشعر محاكاة، وأنّ هذه الأخيرة مهّدت للشعر الموضوعي، ولذلك كان حديث هؤلاء الفلاسفة عن الشعر- رغم تناثره وتفردّه في جميع مؤلفاتهم الفلسفية- يحدد مفهومهم للشعر ولطبيعته ووظيفته وأداته بحيث تُشكّل هذه المفاهيم نسقاً مُتكاملاً مترابط الأجزاء، يترتب فيه كل جزء منها على الآخر، ويترتب على هذه التّظيرة إلى مهمة الشعر وطبيعته المعرفية تصورههم للأداة أو اللغة الشعريّة على وجه التحديد. هذه الدراسة تحاول الكشف عن جانب من جوانب تراثنا النقدي، لتتناول على أساسه أقوال وتصورات الفلاسفة المسلمين القدماء عن الشعر، وإظهار اختلاف النظرية الإسلامية، من خلال تناول الفلاسفة المسلمين للظاهرة الأدبية والقوانين التي تحكمها وتُحدّد أشكالها وغاياتها. فكيف يمكن وصف النظرية الشعريّة عند الفلاسفة المسلمين؟ هل كانت نسخة مستحدثة عن النظرية الأرسطية أم تناثرت فيها أفكار -خاصة- تُعبّر عن خصائص التراث الإسلامي الشعري والنقدي؟.

الكلمات المفاتيحية: الفلاسفة المسلمين؛ مفهوم الشّعريّة؛ غايات الشعر؛ المحاكاة؛ التخيل؛ الشعر والتغيير؛ كذب الأقاويل الشعريّة.

Abstract :

The exploration of the Arab poetic legacy imposes the discussion of Muslim philosophers' attempts at nativization of this legacy. Philosophers who were affected by Greek philosophy have contributed very clearly in shaping the essential pillars of poetic notions. In his book: On the Art of Poetry, Aristotle states that poetry is a simulation, and the latter paved the path for objective poetry, and therefore, these philosophers' discussion about poetry, outlines the notions for poetry, its nature, its function and the tools to convey it, despite the differences in their publications. These notions form a complete pattern where every part follows the next one, and the philosophers' view of the poetic language, determines their view of the function and nature of poetry.

This study aims at exploring one side of our critical legacy, to study the views and imaginations of ancient Muslim philosophers about poetry. It also aims at revealing the difference of the Islamic theory, through the discussion of the literature phenomenon and the rules that guide it and determines its ways and goals.

How can we describe the poetic theory among Muslim philosophers? Was it an updated copy of the Aristotelian theory, or did it contain "personal" ideas that express the properties of the Islamic poetic and critical legacy?

Key words:

Muslim philosophers; the notion of poetry; Poetry goals; simulation; imagination; poetry and change; lies of poetic statements.

مقدمة:

يدفعنا البحث في الشعرية والتوسع في أصولها إلى: استنطاق التراث، والتراث إضافة إلى النقد، والتاريخ والبلاغة، يضم الفلسفة؛ إذ للفلاسفة اجتهادات مهمة في الشعر والشعرية خاصة وهم يقدمون شروحا "لفن الشعر"، فتوصلوا بذلك إلى نظرية شعرية متكاملة «تنظم آرائهم في ماهية الشعر ووظيفته وأداته»⁽¹⁾، فنظروا لفعال الشعر وانشغلوا به لذا «جاءت مباحثهم تنظيراً للشعرية

¹-الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1999م، ص: 07.

بصفتها صفة للشعر لا ماهية»⁽¹⁾، وكانت خلاصة ما توصلوا إليه في تفكيرهم المرتبط بالشعر متميزة بخصوصيات مردّها إلى التّأصيل الفلسفي النظري للشعر.

ويظهر ذلك من خلال الإطلاع على مدونتهم التي تنم عن أطروحاتهم الفلسفية، إضافة إلى ما اكتسبوه من رصيد في بلاغة العرب وشعرهم وما استأثروه من المنظومة الأرسطية خاصة ما يتصل بفن القول، ونعني هنا «فن الشعر» و«الخطابة»، لذلك جاءت نظريتهم مبنية على قواعد كلية للمنطق والطبيعيات والإلهيات، إلى غاية آرائهم في الأخلاق والسياسة التي ساهمت جميعها في بلورة تصورهم للشعرية⁽²⁾.

ويفرض علينا المقام التعرض لفرضية تأثر الفلاسفة المسلمين في التنظير الشعري بأراء أرسطو، غير أننا ننوه أنّهم لم يلتزموا النقل الحرفي لما أُلّف في البلاغة اليونانية، إلّا أنهم استعانوا بمقولاتها في التّأصيل لنظريتهم بحكم أنّ «الثقافات تتفاعل وتتداخل ويُقترض بعضها من بعض دون قيود أو شروط، إذا كان ما يقتضيه يسدّ ضرورات وحاجات»⁽³⁾. وذات الحتمية جعلت الفلاسفة المسلمين يستنبطون من معين البلاغة اليونانية، ويستعينون بفلسفتهم ومنطقهم (اليونان)، اللّذين لونا - الفلسفة والمنطق - تصوراتهم بالتعميم والتماسك القائمين على منهج صارم، مع ذلك يظهر استقلال الفلاسفة بأفكارهم، ونظرياتهم عن آراء أرسطو لسبب هو أنّه «اعتمد في صوغ فهمه للشعر على الأنواع الشعرية اليونانية القائمة على محاكاة الفعل أو الحدث وهي أنواع محددة: كوميديا، تراجيديا، [ملحمة]، بينما مثل الشعر الغنائي المرجعية المعتمدة»⁽⁴⁾ للفلاسفة المسلمين، والذي أُوْرثَ نظريتهم الاستقلالية والتّميّز، لكنّ وكما أشرنا سابقاً قد أخذ الفلاسفة عن أرسطو الكثير، حتى كدنا نخال ما ذهب إليه تودوروف حقيقة حينما اعتقد يقيناً أنّ «التاريخ الكلي للشعرية ما هو إلا إعادة تفسير للنص الأرسطي»⁽⁵⁾.

الشعر عند الفلاسفة المسلمين بين المفهوم والغاية:

كما سبقت الإشارة، اعتمد الفلاسفة في بناء نظريتهم وتحديد متصورهم للشعر على أصول مردّها أطروحاتهم الفلسفية عامة، وهي ذات بُعد عربي؛ لأنه مبني على ما فهموه من شعر العرب ونقدهم؛ إضافة إلى ذلك ما اندرج لديهم من ترجمة «فن الشعر»، فتميز نتاجهم بخصوصيات أهمها

¹ - محمد لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية، الفلاسفة والمفكرون العرب ما أنجزوه وما هفوا إليه، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992 م، ص: 07.

² - ينظر: الأخضر جمعي، المرجع السابق، ص: 27، 90.

³ - محمد مفتاح، مشكاة المفاهيم، النقد المعرفي والثقافة، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000 م، ص: 08.

⁴ - الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص: 09.

⁵ - ينظر: حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج، الطبعة الأولى، المركز العربي، 1994 م، ص: 09.

تداخل المفهوم والمهمة، أو الفعل والفاعلية، أي تفاعل «البنية» و«الوظيفة» و«التشكيل» و«التأثير» في تصورهم للشعر⁽¹⁾، هذا ما جعلهم بعد إفادتهم مما أقرّه أرسطو. في نظرتهم للمحاكاة. يضيفون حقيقة جديدة هي «التخييل»^(*) معتمدين على ما فهموه من التراث العربي؛ لأنّ ما أضفاه الفلاسفة هو إبداع تمخّض عن تأويل مبتدع للنص الأرسطي فـ «التأويل كثيراً ما يكون نفاذاً إلى اللامفكر، فيه في النص الأول»⁽²⁾. وهنا يتحول إلى إبداع، وهذا ما رمى إليه الفلاسفة بابتداعهم «للتخييل».

إنّ تعريفات الفلاسفة للشعر تؤكد حقيقة تداخل مقاصد المفهوم والغاية، ونبدأ بتعريف الفارابي^(**) (ت339هـ)، الذي يستخدم مصطلحي «المحاكاة» و«التخييل» على نحو «يربط به المحاكاة بمجال التشكيل، مع الاهتمام بالشق الغائي المترتب عن خاصية التخييل»⁽³⁾، وربط المحاكاة بالتخييل إفصاح عن ربط مفهوم الشعر بغايته.

أما تعريف ابن سينا (ت428هـ) فيستقطب إبراز العناصر التكوينية للشعر، ويقابلها بأصلها الموضوعي، إذ يتعرض لمفهوم المحاكاة و«أساليبها في تمثيل الموجودات والموضوعات شعراً»⁽⁴⁾ لتكون المحاكاة عنده «إيراد مثل الشيء وليس هو هو، فذلك كما يحاكي الحيوان الطبيعي بصورة هي في

1 - ينظر، الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص: 27.

* - التخييل: خال الشيء ظنّه وتفكره ووخيل عليه، شبه، وأخال الشيء، اشتبه، ويعرفه ابن سينا: «الكلام الذي تدع له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار» ويعرفه حازم فيقول: «هو صور ينفعل لتخييلها انفعالاً من غير روية إلى جهة من الانبساط والانقباض». وقبلهم جميعاً يذهب الفارابي إلى ربط التخييل بسبل التعلم والتعليم للأمم بأساليب راقية فيقول: «التخييل ضرب من ضروب تعليم الجمهور والعامّة». ينظر: أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، لبنان، 2001م، ص: 145. وأرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 2001م، ص: 161. والقرطاجي أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق، الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1986م، ص: 85.

2 - محمد لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية، ص: 285.

** - وُلد أبو النصر محمد ابن محمد ابن طرخان ابن أوزلغ في مدينة فاراب في إقليم خراسان التركي... أكبّ على الدرس في بلدته وكان يجيدُ الفارسية والتُّركية والكُردية، وأتقنَ العربية في بغداد، وتلمذ على أبي بشر متى (المتوفى عام 328هـ)، ودرس عنه المنطوق... فكان أكبر الفلاسفة على الإطلاق... وأخذ عنه ابن سينا وابن رشد وغيرهما من فلاسفة العرب. مؤلفاته: «ما بعد الطبيعة» «الجمع بين رأي الحكّمين» و«قوانين في صناعة الشعراء». تُوفي الفارابي سنة 339هـ. ينظر: ابن خليكان أحمد ابن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1970م: ج/2، ص: 100/2.

3 - الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص: 29.

4 - الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص: 28.

الظاهر كالتطبيعي، ولذلك يتشبه بعض الناس في أحواله ببعض، ويحاكي بعضهم بعضاً، ويحاكون غيرهم، فمن ذلك يصدر عن صناعة (...) ومن ذلك ما يكون بقول»⁽¹⁾.

هذا التنوع الذي يُمَيِّز المحاكيات غير متناف مع ما يتميز به الموضوع في نسيج المحاكاة عن «أصله الوجودي»؛ وهذا التنوع نفسه يجمع بين المحاكاة والتخييل، ويساعد على نحت المفهوم، وضبط المهمة؛ والتعدد المصطلحي أيضاً مكن من النظر في الشعر من زوايا متعددة يلحم في قاعدة مشتركة الأصل المفهومي، والشق الغائي له؛ «فيصف جذره التكويني المرتد إلى خاصية المحاكاة المسؤولة عن تحقق أو المتولد من مواصفات الغاية نفسها»⁽²⁾؛ إذاً يتلخص رأي الفلاسفة المسلمين في الشعر في كونه التشكيل الفني للموضوعات، والأشياء بحسب قواعد المحاكاة والتخييل، مما يجعل هذه الموضوعات ذات خصوصيات شعرية، تحتل موقعها في النسق المنطقي الذي يستقطبه خطاب البرهان والجدل والمغالطة والخطابة والشعر.

إنَّ خصوصية الشعر تكون عندئذ مرتدة إلى المحاكاة والتخييل، وما يعضدُها من وزن، هي المميز النوعي للشعر في المنظومة المنطقية التي صاغها الفلاسفة المسلمين⁽³⁾، وعلينا الإقرار «بالمستوى النظري الذي تُلبسه الصياغة الفلسفية للشعر واندراجها في المفاصل النوعية للخطاب الفكري للفلاسفة، واحتلالها موقعاً حيويًا في مشاغلهم الفكرية المرتبطة بما يرونه مشروعًا مجتمعيًا سياسيًا وأخلاقيًا قائمًا على قناعات إعتقادية معرفية»⁽⁴⁾. مع الإقرار أيضاً بما تَمَيَّز به الاصطلاح النوعي، بمعنى الذي أنتجته المنظومة الفلسفية العربية سواء المعتمدة على الترجمة أو تلك المتولدة عن تفاعل الفكرين العربي واليوناني، وهو ما استثمره الفلاسفة في ضبط ظاهرة الشعر، وكل ما له علاقة بالأدب سواءً كان ذا موقع عميق أو ظاهر أو احتل هامشاً، وذاك يخص ما طُرح على يد البلاغيين العرب قبل تسلل المنظومة الأرسطية إلى الفكر العربي، وهو ما يمثل متن النقد الأدبي العربي، من قضايا اللفظ والمعنى. فإنَّ إيقاعه ظلَّ مُتَأَزِّراً في الغالب مع أصول النظرية الأدبية في التراث العربي، فاعتبار تعاضد المحاكاة والتخييل يُشكِّل فعلاً شعرياً غنائياً يتشكَّل في أصله عن محاكاة للأشياء وأشباهاها، تتَّسم هذه المحاكاة بالقُدرة على الإقناع والتأثير (وقد تواتر ذكر هذا الأخير عند النقاد القدماء).

الشعر وحقيقة الكذب:

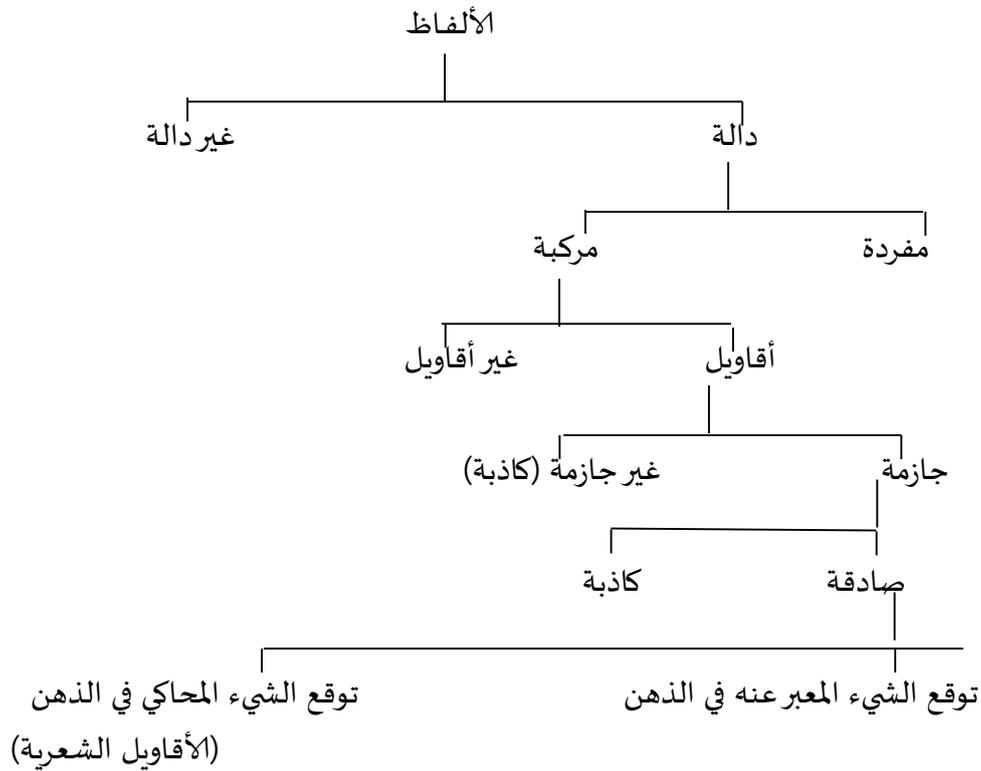
¹- أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا البخاري، كتاب الشعر، من كتاب «الشفاء»؛ ضمن أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 2001م، ص: 168.

²- الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص: 30.

³- ينظر: الأخضر جمعي، المرجع نفسه، ص: 36.

⁴- الأخضر جمعي، قراءات في التنظير الأدبي والتفكير الأسلوبى عند العرب، إصدارات رابطة إبداع الثقافية الوطنية، الجزائر، ص: 97-98.

بِعَرَضِنَا لِلتَّعْرِيفَاتِ الَّتِي خَصَّهَا الْفَلَّاسِفَةُ الْمُسْلِمُونَ لِلشَّعْرِ نُلَاحِظُ مَدَى التَّجَانُسِ بَيْنَهَا فَالْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ يَرَى «الْأَلْفَاظَ لَا تَخْلُو مِنْ أَنْ تَكُونَ إِمَّا دَالَّةً، وَإِمَّا غَيْرَ دَالَّةٍ، وَالْأَلْفَاظَ الدَّالَّةَ مِنْهَا مَا هِيَ مَفْرَدَةٌ، وَمِنْهَا مَا هِيَ مَرْكَبَةٌ، وَالْمَرْكَبَةُ مِنْهَا مَا هِيَ أَقَاوِيلٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ أَقَاوِيلٍ، وَالْأَقَاوِيلُ مِنْهَا مَا هِيَ جَازِمَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ جَازِمَةٍ، وَالْجَازِمَةُ مِنْهَا مَا هِيَ صَادِقَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ كَاذِبَةٌ، وَالْكَاذِبَةُ مِنْهَا مَا يُوَقِّعُ فِي ذَهْنِ السَّامِعِينَ الشَّيْءَ الْمَعْبَرُ عَنْهُ بِدَلِّ الْقَوْلِ، وَمِنْهَا مَا يُوَقِّعُ فِيهِ الْمَحَاكِي لِلشَّيْءِ وَهَذِهِ هِيَ الْأَقَاوِيلُ الشَّعْرِيَّةُ»⁽¹⁾ ويمكن تمثيل تصور الفارابي للأقوايل الشعرية في الخطاطة التالية :



إذا الشعر عند الفارابي (قول) + (جازم) + (كاذب) + (محاكاة) + (تخييل)، ووَصَفَهُ لِلأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ بِالْكَاذِبَةِ لَيْسَ تَهْوِينًا مِنْ شَأْنِهَا، لَكِنْ مَقْصِدُهُ تَمَيُّزُ الشَّعْرِ عَنِ الْخَطَابَاتِ الْمُنطِقِيَّةِ الْمَخْتَلِفَةِ، فَهَذِهِ الصِّفَةُ الْمُرْتَبِطَةُ بِالشَّعْرِ عِنْدَهُ لَا تُسْقِطُ مِنْ قِيَمَةِ الشَّعْرِ وَمَكَانَتِهِ، لِذَلِكَ نَجِدُهُ يُصَرِّحُ فِي مَتْنِ رِسَالَتِهِ «وَلَا يَظُنُّ ظَانَ أَنَّ الْمَغْلَطَ وَالْمَحَاكِي قَوْلٌ وَاحِدٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا مُخْتَلِفَانِ بِوَجْهِ مِنْهَا أَنَّ غَرَضَ الْمَغْلَطِ غَيْرُ غَرَضِ الْمَحَاكِي، إِذَا الْمَغْلَطُ هُوَ الَّذِي يَغْلِطُ السَّامِعُ فَأَمَّا الْمَحَاكِي لِلشَّيْءِ فَلَيْسَ يُوْهِمُ النَّقِيضَ لَكِنْ الشَّبِيهَ، وَيُوجَدُ نَظِيرُ ذَلِكَ فِي الْحَسِّ وَذَلِكَ أَنَّ الْحَالَ الَّتِي تُوجِبُ إِهْمَامَ السَّائِكِينَ أَنَّهُ مُتَحَرِّكٌ، مِثْلَمَا يَعْضُرُ لِرَاكِبِ السَّفِينَةِ عِنْدَ نَظَرِهِ لِلْأَشْخَاصِ الَّتِي هِيَ عَلَى الشُّطُوطِ، أَوْ لِمَنْ عَلَى الْأَرْضِ فِي وَقْتِ الرَّبِيعِ

¹ - الفارابي، مقالة في قوانين صناعة الشعراء، ضمن أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 2001 م، ص: 150.

عند نظره إلى القمر والكواكب من وراء الغيوم السريعة السير، هي الحال المغلطة للحس، فأما الحال التي تعرض للناظر في المرآي والأجسام الصقيلة فهي الحال الموهمة شبيه الشيء»⁽¹⁾. هذا احتراز من الفارابي ممّا يمكن أن يؤدي إليه اعتبار الشعر محاكاة وتقديمًا لمثيلات الأشياء، فالإيهام بشبيه الشيء هو المحدّد لخاصية الشعر التي لا تُتمثّل أبداً رسماً لنقيض الشيء، أو النّقل الحرفي له، بل تتمثّل في إدراج مثيلات له من خلال تقديمه في علائق فنية تجعله منتم إلى المحاكاة الشعرية التي لا تمثل نقيضاً للصدق؛ «لأنها تتميز بمواصفات الحقيقة الشعرية»⁽²⁾. لذلك نقول أنّ لفظة «الكذب» ليست غضباً من قيمة الشعر، بل هي تميز الأقاويل الشعرية عن غيرها؛ ولئن اعتبر الفارابي الأقاويل «الكاذبة بالكل في الشعرية»⁽³⁾، إلّا أنّه يميزها عن غيرها بصفة هي غالبية على صفة «الكذب» تتمثل في الخصائص اللغوية المشكّلة للأقاويل الشعرية والمرتدة أساساً إلى خصائص «المحاكاة والتخييل» «فالهياة التي يتلبّس بها القول الشعري ضمن نسج الخطابات المنطقية هي التي تكفل له هذا التمييز، وهي التي تطبعه بهوية مخصوصة ضمن النسق المنطقي عامة»⁽⁴⁾.

فيكون عندئذ مرّد الشعرية بالدرجة الأولى إلى الإخراج الصوري للمعنى، أو إلى الشكل، وما ينطبع عليه من آثار التخييل والوزن، هذه هي إذاً الخصائص المائزة للشعر عند الفارابي، والفلاسفة عامة، كما سنرى؛ إذ إنهم أدركوا خصوصية البنية الشعرية بإقرارهم بالتنوع في استعمال اللغة إلى أكثر من مقصد، كمقصد الإفهام ومقصد التأثير، وتنوع بنية الكلام حسب تنوع المقاصد. العناصر التكوينية للشعر عند ابن سينا:

يستقطب التعريف الذي خصه ابن سينا للشعر استجلاءً لعناصره، فالشعر عنده «كلام مخيّل مؤلف من أقوال موزونة متساوية وهي عند العرب مقفاة، ومعنى كونها موزونة أن يكون لها عدداً إيقاعي؛ ومعنى كونها متساوية هو أن يكون كل قول منها مؤلفاً من أقوال إيقاعية، فإنّ عدد زمانه مُساوٍ لعدد زمان الآخر، ومعنى كونها مُقفاة هو أن يكون الحرف الذي يختم به كل قول منها واحداً»⁽⁵⁾. ويمكننا استعراض هذه العناصر فيما يلي:

أولاً: التخييل والمحاكاة:

لقد علق الفلاسفة جوهر الشعرية بالخصائص الصورية للشعر وقوموا مفهومه ومهمته على فكرة المحاكاة والتخييل، لهذا نلّف ابن سينا يبدأ بهذا العنصر (التخييل) ويمنحه أهمية خاصة:

1 - الفارابي، مقالة في قوانين صناعة الشعراء، ضمن أرسطوطاليس، فن الشعر، ص: 150 – 151.

2 - الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص: 31.

3 - الفارابي، المرجع السابق، ص: 151.

4 - الأخضر جمعي، المرجع السابق، ص: 31.

5 - ابن سينا، كتاب الشعر، ص: 161.

فبوصفه للكلام بالمخيل يفصل بينه وبين الأقاويل الموضوعية المتواطئة التصديقية، وعندها يتضح مفهوم الشعر إذا قيس بالخطابات المنطقية.

هذا القياس يميز الشعر عن خطاب البرهان والجدل والفسفسطة^(*)؛ والخطابة إضافة إلى النظر فيما أُتيح من أجله كل خطاب «شعري وغير شعري»، «فما يتولد من المنظومة المنطقية من وظائف يترتب على كيفياتها المخصوصة في استخدام اللغة فضلا عن خصوصيات المقدمات المنطقية في كل صنف مما سبق، فيحصل التصديق على البرهان والظن، والجدل والمغالطة عن السفسطة، ويترتب عن نصي الخطابة والشعر الإقناع والتخييل»⁽¹⁾.

ما يميز الشعر إذاً هو التشكيل النوعي لمقدماته القائمة على المحاكاة والتخييل فإذا قيل مثلاً «فلان قمر لأنه حسن فإنه يقيس هكذا : فلان وسيم وكل وسيم قمر، ففلان قمر»⁽²⁾، من هنا سيكون جوهر الشعرية في بنائها الخاص للقول، سواء أكان صادقاً أو غير ذلك فالقول «الصادق إذا حُرف عن العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس، فربما أفاد التصديق والتخييل معاً وربما شغل التخييل عن الالتفات إلى التصديق والشعور به»⁽³⁾.

إضافة إلى التخييل يتعرض ابن سينا لخاصية المحاكاة وهي عنده «إيراد مثل الشيء وليس هو هو، فذلك كما يحاكي الحيوان الطبيعي بصورة هي في الظاهر كالطبيعي، ولذلك يتشبه بعض الناس في أحواله ببعضه، ويحاكي بعضهم بعضاً، ويحاكون غيرهم، فمن ذلك ما يصدر عن صناعة، ومن ذلك ما يتبع العادة، وأيضاً من ذلك ما يكون بفعل، ومن ذلك ما يكون بقول»⁽⁴⁾؛ لذلك سيكون قوام الشعر عند ابن سينا المحاكاة والتخييل وما يعضدهما من وزن.

ثانياً: الوزن:

في قوله «موزونة» يطرح ابن سينا الفصل بين ما هو شعر وما هو نثر، وهذا العنصر من العناصر الداعمة للتخييل الشعري، لأن القول يكون شعرياً بتوفر خاصية المحاكاة والوزن، ومرد هذا

* - السفسطة: تطلق فلسفياً على الحكمة المموهة، وتطلق على القياس الذي تكون مقدماته صحيحة ونتائجه كاذبة رغم مطابقته لقواعد المنطق فالقياس المركب من المشبهات الواجبة القبول يسمى قياساً سفسطائياً. أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق علال الغازي، ملحق معجم المصطلحات الفلسفية، مكتبة المعارف، الرباط، 1980م، ص: 156، 157.

1 - الأخصر جمعي، قراءات في التنظير الأدبي والتفكير الأسلوبى عند العرب، ص: 92.

2 - ابن سينا، القياس من الشفاء، ص: 161، نقلاً عن الأخصر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص: 180.

3 - ابن سينا، كتاب الشعر، ص: 162.

4 - ابن سينا، كتاب الشعر، ص: 168.

الأخير إلى «أشكال من التناسب التي تنظم أجزاء القول وتكفل لها تحقيق مقتضيات الانسجام والتوازن»⁽¹⁾، وهذا الشكل المتعارف عليه كميزة قارة على الأقل في الشعر القديم.

ثالثاً: التساوي:

يكون القول الشعري مؤلفاً من إيقاعات عدد زمانها مساوٍ لعدد زمان الآخر - على حد تعبير ابن سينا- وليكون أيضاً فرقاً بين الشعر، وبين نظم يؤخذ جزاءه من جزئين مختلفين⁽²⁾.

رابعاً: القافية:

التشابه في الخواتيم، وقصده هنا التفريق بين ما هو مُقْفَى، وغير مقفَى، وهي ميزة في الشعر العربي. وقد اختلف أهل اللغة والعروض في معنى القافية، منهم من ذهب أنها آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يسبقه

مع حركة الحرف السابق للساكن مثل «من عل»⁽³⁾ في بيت امرئ القيس^(*)، وقد قال الخليل

هي آخر

متحرك، قبل الساكن قبل الأخير من آخر البيت كقول أبي الطيب المتنبي^(**):

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته . وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا⁽⁴⁾.

والقافية هنا حسب الخليل (ت170هـ) «مَرْدَدٌ»؛ وهي عند الأخفش الكلمة الأخيرة من البيت

«تمردا»، فقد قال: «القافية آخر كلمة من البيت، واستدل على صحة ذلك، بأنه لو قال لك إنسان:

1- الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص: 176.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص: 28.

3- والقافية لبيت في معلقة امرئ القيس وهو:

مَكْرَمٍ مَقْبَلٍ مُدْبِرٍ مَعًا . كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهَ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ.

ينظر: أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى، المعروف بالأعلم الشنتمري؛ فحول العرب في علم الأدب، شرح ديوان امرئ القيس بن حجر الكندي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1925م، ص: 80.

* امرؤ القيس: هو ابن عمر ابن الحارث الكندي، من بني أكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، وُلد بنجد واشتهر بلقبه، واختلف المؤرخون في اسمه فقيل حندج، وقيل مليكة، وقيل عدي. وامرؤ القيس من فحول الشعراء الجاهلية من الطبقة الأولى، سبق الشعراء إلى أشياء ابتدعها فاستحسنها العرب واتبعته عليها الشعراء، فكان أميرهم في العصر القديم. وُلد عام 130 ق.هـ، وتوفي عام 80 ق.هـ. ينظر: محمد بن سلام الجمعي: طبقات فحول الشعراء: تحقيق محمود محمد شاكر: دار المدني: جدة، (د.ت.)، ص: 15-19.

** المتنبي هو: أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي الكوفي. المعروف بالمتنبي، الشاعر الحكيم. ولد في الكوفة ونشأ في الشام، وأكثر المقام بالبادية حتى وعى اللغة وفاق أهل زمانه بالشعر، وكان مفطوراً على كبر النفس وعلو الهمة. اتصل بسيف الدولة الحمداني وانقطع إليه، ثم مضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدي، وأشهر فنونه المدح والفخر. ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان: 120/1.

4- أبو الطيب المتنبي، الديوان، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، لبنان، 1424هـ/2003م، ص: 236.

أكتب لي قوافي قصيدة، لكتبت له كلمات نحو: كتاب، إهاب، ركاب، سحاب...»⁽¹⁾. وعند الجاحظ (ت255هـ) هي خواتيم أبيات الشعر، وهي عند آخرين البيت كله لكن التحديد الدقيق والشاسع هو تحديد الخليل وعليه سارت المتون العروضية. ويقال أنّ سر تسميتها قافية أنها تَقْفُو أثر كل بيت⁽²⁾. وعند العرب لا يكاد يسمى شعراً ما ليس بمُقْفَى⁽³⁾.

يمكننا تلخيص الشروط التي تخلق الحدث الشعري عند ابن سينا فيما يأتي:

- الوزن: وهذه أمور تتعلق بزمان القول وعدد زمانه.
- اللفظ: ويتعلق الأمر هنا بالمسموع من القول أي بنيته الصوتية الإيقاعية.
- اللفظ والمعنى: في ترابطهما العضوي الجدلي ههنا تتردد بين المسموع والمفهوم «أي التناغم الإيقاعي الصوتي الدلالي».

فالشعرية بهذا ستكون «حدث ونتاج حدث» يتولد الحدث بين البنيتين الصوتية، والدلالية ونتاجه من المزوجة بينهما، وتنشأ الشعرية عن الفعل في اللغة بطريقة تتجنب الحيل، أي «دون هدم البنية اللغوية المتعارفة أو بطريقة تعتمل فيها الحيل وفيها الشاعر يقوم بهدم البنية اللغوية المتعارفة، فيعدل عن الطريقة المعتادة في تشكيل الكلام وتعليق بعضه ببعض»⁽⁴⁾. يسمى هذا القانون بقانون المخالفة والمشكلة، وهو من أهم القوانين التي ينبني عليها الحدث الشعري.

الشعر والتغيير عند ابن رشد:

يذهب ابن رشد (ت595هـ) إلى أنّ القول هو المغيّر أي أنه غير القول الحقيقي، ويأتي بشواهد

منها⁽⁵⁾:

وَمَا قَضَيْنَا مِنْ مَيِّ كُلِّ حَاجَةٍ . . وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ

¹- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدابه، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطاء، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ/ 2001م، ج/1، ص: 160.

²- ينظر: مصطفى الجوزو، نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، سنة 1981م، ص: 36.

³- ينظر: ابن رشيق، المرجع السابق، ج/1، ص: 159.

⁴- ينظر: محمد لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية، ص: 260 – 261.

⁵- أبو الوليد بن رشد، تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ضمن أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 2001م، ص: 242.

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا .: وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحِ⁽¹⁾

وإنما صار شعراً من قبل أنه استعمل قوله «أخذنا بأطراف الحديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح» بدل قول: تحدثنا، ومشينا، وكذلك قوله: «بعيدة مهوى القرط» إنما صار شعراً لأنه استعمل هذا القول بدل قوله: طويلة العنق⁽²⁾.

إنَّ مقابلة الأقوال الشعرية بالأقوال الحقيقية، تبين ارتباط الشعرية بأساليب في «إخراج القول غير مخرج العادة»، مثل القلب، والحذف، والزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب ومن الإيجاب... ونجد الحذف في قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾⁽³⁾، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِّمَ بِهِ الْمُوتَى﴾⁽⁴⁾.

والقلب مثل قول القائل: فلان من أجل بنيه لا بنوه من أجله، والسنة سبب الإنسان لا الإنسان سبب السنة، والتقديم والتأخير مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾⁽⁵⁾. والزيادة مثل قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ﴾⁽⁶⁾ ومثال التغير من الإيجاب إلى السلب قول القائل: «ما فعله أحد إلا أنت» بدل قوله «أنت فعلته» ومن هذا المعنى قول النابغة الذبياني^(*):

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُوِّفَهُمْ .: بِهِنَّ فُلُوكَ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ⁽⁷⁾.

فإنه أوجب لهم الفضائل بنفي العيوب، واستثنى منها ما ليس بعيب على جهة تسمية الشيء باسم ضده⁽⁸⁾. وكل الأشعار المحركة الفعالة ينبغي أن تنتمي إلى صنف من الأصناف السابقة الذكر.

الخاتمة:

¹ -كعب بن زهير: الديوان: حقه وشرحه وقدم له الأستاذ علي فاعور: دار الكتب العلمية: بيروت: لبنان، 1997م، ص: 15.

² - ينظر: ابن رشد، المرجع السابق، ص: 242 – 243.

³ - سورة يوسف، الآية : 82

⁴ - سورة الرعد، الآية : 31.

⁵ - سورة الكهف، الآية: 1.

⁶ - سورة المؤمنون، الآية : 20.

* أبو أمامة أو أبو ثمامة، زياد ابن معاوية بن ضباب بن سعد بن ذبيان، وينتهي نسبه إلى مضر، ولقب بالنابغة وهو شاعر جاهلي فحل، مقدم من الطبقة الأولى، وأحسنهم ديباجة شعر، وأجزلهم بيتاً، وكان تُضرب له قبة من جلدٍ أحمر بسوق عكاظ. توفي نحو 18 ق.هـ، ينظر: الجاحظ: البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام هارون: دار الجيل، بيروت، (د.ت.)، ج/1، ص: 322، والأصفهاني، الأغاني (ت 356هـ): تحقيق سمير جابر: الطبعة الثانية: دار الفكر، بيروت، (د.ت.)، ج/16، ص: 303، وأبو عبد الله محمد ابن شرف القيرواني: مسائل الانتقاد، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، (د.ت.) ج/20، ص: 167.

⁷ - القرطاجني، المنهاج، ص: 350.

⁸ - ينظر: ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطو في الشعر، ص: 242 ، 243 ، 244.

ختاماً توجي التعريفات التي خصها الفلاسفة للشعر بشده التجانس فيما بينها، فعند الفارابي كما سبق الذكر الشعر هو: (قول) + (جازم) + (كاذب) + (محاكاة) + (تخييل) أما عند ابن سينا فهو «كلام مخيل» وعند ابن رشد الأقاويل الشعرية «أقاويل مخيلة»، غير أنّ هناك فرق بسيط بين تعريف الفارابي وتعريف ابن سينا وابن رشد، يكمن في كون الفارابي «يعتبر التخييل ينتج عن المحاكاة ويتولد عنها في حين يستخدمه ابن سينا وابن رشد كمرادف للفظ المحاكاة»⁽¹⁾.

يكمن التجانس الذي أشرنا إليه في إيراد خاصتي التخييل والمحاكاة، فظاهرة الشعرية تطفو بفضل قانون مركزي هو التخييل الذي هو «فعل الشعر» يوجد هذا الفعل في الأقاويل الشعرية وكذلك النثرية وهذا ما يُقرُّ به الفارابي حيث إنّ «أغلب الخطباء يقولون نثراً ولكنهم يحاكون، فيقول الناس هذه خطبة بليغة ولكن تلك الخطبة في حقيقة الأمر هي قول شعري»⁽²⁾.

وابن سينا أيضاً يُقرُّ بأنّ الأقاويل النثرية مخيلة، ويوافقهما ابن رشد الذي يستشهد بنصوص نثرية، وبخاصة القرآن الكريم، ويعدهما أقاويل قائمة على التخييل، وقد أوردنا ذكر بعضها فيما سبق.

بهذا نخلص إلى أنّ لنظرية الشعر عند الفلاسفة، جانبا سيكولوجيا (نفسيا) يتجسّد في الهيئة النفسية التي تولد الشعر، مما يجعلنا ننتقل من مستوى نصي إلى جذر نفسي يُفسّر فعل الإبداع الشعري بالاستناد إلى الملكات النفسية الحاضرة له، من ضمن تلك الملكات، قوَى العقل والمخيّلة التي تُناط بعملية نسج القول الشعري. اعتماداً على «مخزون حسي» و«وصاية عقلية» نجد في هذا التصور خصائص نوعية مميزة للقوى التي تتولى نسج الشعر، وهذا ما جعل الفلاسفة يستخدمون التخييل في ضبط مفهوم الشعر⁽³⁾. ولا يتم ضبط الصورة الشعرية عندهم إلا عبر هذا المصطلح، وبه استطاع الفلاسفة مقارنة الظاهرة الشعرية، وضبط مفهوم الخطاب الشعري ووظيفته. فوصلوا إلى التفرد والتميز في التأصيل للنظرية الشعرية.

¹ - محمد لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية، ص: 231.

² - محمد لطفي اليوسفي، المرجع نفسه، ص: 231.

³ - ينظر: الأخضر جمعي، قراءات في التنظير الأدبي، ص: 94.